الدمشقي والأبراج

دمشق مدينة تعلّمك أن تكون قويًا دون قسوة، وعالمًا دون غرور، ومتدينًا دون خوف، وأن تفهم النار... دون أن تحرقك.

كانت الأسواق عامرة في دمشق الجميلة من عام 1190 م والتي كانت قلبا نابضا للعالم الإسلامي في لحظة تاريخية شديدة التوتر والجمال فقد تم تحرير القدس قبل ثلاث سنوات ولكن بقيت مدينة صور في يد الصليبيين ومنها خرجوا لحصار عكا برا بعد أن جاءت الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد حاكم إنجلترا وفيليب حاكم فرنسا من البحر فكان الحصار على المدينة الباسلة وحاكمها الشجاع بهاء الدين قراقوش وجاء صلاح الدين من البر ليخفف الحصار عن المدينة، في معارك مستمرة استمرت لعامين وفي

مدينة دمشق كان الدمشقي يجلس مع والده في ورشة النحاس ومعه رضوان الغلام 10 سنوات.

مع ساعات الفجر كان سوق النحّاسين في دمشق ما زال يتثاءب تحت قبابه الحجرية.

رائحة الفحم، والخل، والنحاس الساخن تختلط مع صوت ماء يجري في ساقية قريبة.

وقف الدمشقي شابًا، كمّاه مرفوعان، يطرق بمطرقته طرقات موزونة، كأنها إيقاع يعرفه قلبه قبل يده. خلفه، كان أبوه، شيخ بوجه نحاسي اللون من كثرة النار، يقلب صفيحة في الجمر، ثم قال بصوت هادئ:

- لا تضربه وهو غاضب يا ولدي... النحاس مثل الناس، إن قسوت عليه وهو بارد انكسر، وإن سخّنته زيادة احترق وخان شكله.

توقّــف الدمشــقي، مســح العــرق عن جبينه، وقال:

- أعرف يا أبي... لكني أتعجل أحيانًا.

ضحك الأب ضحكة قصيرة، وأشار بعينيه إلى زاوية الورشـة. حيث يقـف رضـوان غلام في العاشرة، نحيل الجسـد، واسـع العينين، يمسـك قطعـة نحـاس صـغيرة، يتأملها كأنها كنز.

الأب: تعال يـا بـني.. هـل تعـرف لمـاذا نخلط الملح بالخل؟

هز الغلام رأسه نفيًا.

أخذ الأب إنـاءً صـغيرًا، سـكَب فيـه قليلًا من الخل، ورشّ عليه الملح،

ثم ناول الإناء للدمشقي.

- امسح به النحاس.

فعل الدمشقي،

وسرعان ما بدأ السطح يستعيد لمعانه.

الغلام بدهشة: كأنه عاد حيًا

ابتسـم الدمشـقي، وجثـا على ركبتيـه أمامه وقال:

- كـل علم يبـدأ بدهشـة. النحـاس لا يموت، هو فقط ينسـى شـكله... ونحن نُذكّره.

رفع الأب حجرًا أخضر صغيرًا (الزنجار)، وقال:

- وهذا إن تركنـاه عليـه صـار قبحًـا، وإن عرفنا كيف نستخدمه صـار زينـة. مثـل المعرفة تمامًا.

سكت لحظة، ثم أضاف وهـو ينظـر إلى ابنه:

- يا ولدي... من تعلّم كيف تُطاوَع النـار، لن تخدعه الدنيا.

نظـر الدمشـقي إلى الغلام، ووضـع في يده المطرقة الصـغيرة: جـرّب... لكن

تــذكّر لا تضــرب بقــوة، اســمع صــوت النحاس أولًا.

رفــع الغلام المطرقــة، وضــرب ضــربة خجولـــة... رنّ الصـــوت في الورشـــة، خفيفًا...

تحت قناديل دمشق

كـان الليـل قـد بـدأ يهبـط على دمشـق ببطء،

لا كضــيفٍ ثقيــل، بــل كســتار حريــري يُسدل على يومٍ طويل.

خرج الدمشقي من سوق النحاسين،

والغلام إلى جـــواره، خطواتهمـــا تـــتردّد فوق حجارة صقلتها أقدام ألف عام.

القناديــل الزيتيــة عُلّقت على الجــدران، تضيء الطريق بنورٍ أصفر خافت، يــترك للظل مساحة كي يحكي قصته.

الغلام (بهمس): لماذا تبدو المدينة مختلفة ليلًا؟

ابتسم الدمشقي، ولم ينظر إليه، بل إلى الطريق الممتد أمامهما.

الدمشقي: لأن النهار يُظهر ما نعمل، والليل يُظهر ما نفكّر.

مرّا بجوار دكان عطّار، انبعثت رائحة القرنفل والخل والورد، فتوقف الغلام لحظة.

الغلام: كل شيء هنا له رائحة.

الدمشقي: ومن لا رائحة له... لا ذاكرة له.

تابعا السير. من بعيد، كان صوت ماء بردى ينساب، خفيفًا كأنه يخشى أن يوقظ المدينة.

عند زاوية ضيّقة، مرّ شيخ يحمل مخطوطة تحت ذراعه، وبعده جندي

أيّـوبي يربـط سـيفه، ثم صـبي يـركض حافي القدمين.

الدمشـقي: دمشـق لا تسـأل من أنت، بل: ماذا تضيف؟

اقتربا من باب شرقي، والحارس يتثاءب وهـو يشـدّ عباءتـه فتبـادلا التحيـة وأكملا طريقهما الى المسجد لصلاة الفجر

مضيا، وتحت قوس حجري قديم، توقّف الدمشقي فجأة.

الدمشقي: اسمع.

سـكت الغلام. لا شـيء سـوى: وقـع خطـوات بعيـدة. نـداء مـؤذن متـأخر خشخشة قنديل يهتز

الدمشـقي: هـذه المدينـة تتنفسـومن يعيش فيها طويلًا، يتعلّم أن يسمع قبـل أن يتكلم.

رفع الغلام رأسـه إلى القناديـل: الغلام: هل تحب دمشق؟

نظر الدمشقي إليه هذه المرة، ثم قال: أنا منها... والمرء لا يسأل قلبه إن كان يحب صدره.

تابعا المشي، وظلّ نور القناديل خلفهما، كأن المدينة تراقبهما... وتبتسم.

درس النار

لكن درس الدمشقي لم ينتهى فبعد صلاة الفجر يبدأ العمل في الكيمياء وتحديدا كيمياء النار التي يعشقها وتعرض للكثير من السخرية من أصدقائه بسببها ولكن في البداية كان يعطى درس لرضوان عن النار وكيف أن النار الأغريقية مثلا لا تطفئ حتى بالماء وقام بحرق مادة تشبه (التنر) في وعاء نحاس ووضع القليل من الماء ولكنه لم تنطفئ الا عندما القي عليها الرمل ثم وضع قليل من الزيت في كوب وأشعله وطافت النار المشتعلة

فـوق المـاء ولكنـه وضـع وعـاء زجـاجي حول الكوب ليمنع الهواء فكانت النتيجـة انطفاء النار تلقائيا

ثم قـال متحـدثا لرضـوان - النـار تحتـاج ثلاثـة طعـام تاكلـه، ونَفَس، وشـرارة إن أخذتَ واحـدًا... مـاتت ونحن هنـا أخـذنا منها الهواء فانطفئت.

وكرر رضوان التجربة مع شمعة مشتعلة بوعـاء زجـاجي حولهـا وانطفئت بـدورها وهنـــا جلس الدمشـــقي على الأرض، والغلام إلى جواره، وعلى مسافة قريبـة صفيحة نحاس لم تُطرق بعد.

قال الدمشقي وهو يحدّق في اللهب:

- الناس تظن النـار وحشًـا... لكنهـا في الحقيقة كائن مطيـع، يخـدم من يفهمـه، ويحرق من يتحدّاه بجهل.

وهنا وضع إنـاءين صـغيرين على طاولـة ثم قال لرضوان

المـــادة الأولى نســـتخدمها في صـــنع المراهم ومـا شـابهها من أدويـة (يقصـد الجلســرين) أمــا الثانيــة فســنتخدمها للتطهير من الجـروح (يقصـد برمنجنـات البوتاســيم) والان سنضــعهم معــا مــع نقطة ماء صغيرة وورقة لتشتعل

أشار إلى الإنــاءين دون أن يلمســهما ثم أكمل

- حين تجتمـــع بعض الأشـــياء الهادئـــة، تستيقظ النار

أشياء تُستعمل للدواء، لتطهير الجــروح، ولتلـــيين المفاصـــل إذا اجتمعت بغـــير علم، واسـتيقظت بالمـاء، تـذكّرت أنهـا نار.

رضوان - أدوية تصبح نارًا؟

ضحك الدمشقي ضـحكة قصـيرة: العلم لا يعـرف خـيرًا ولا شـرًا، يعـرف الفهم فقط.

وبعد لحظات اشتعلت الورقة وصاح رضوان

- لقد ايقظت النار حقا

انتهى الدرس مع رضوان الذي شكر الدمشقي ورحل ولكن بعد دقائق مسرعا وصاح فيه

- تعالي بسرعة الى المسجد الأموي يجب أن ترى ما يحدث

لم يرد الدمشقي بل أسرع خلفه جاريا وهناك وأمام المسجد كان يجلس رجل يبدو عليه الاجهاد من السفر وعلى وجهه اصابات من معارك عكا كما ذكر وعندما حضر الدمشقي كان الرجل يقول

- العلوج أحضروا ثلاثة أبراج مثل القلاع يضربون عكا منها لا نستطيع احراقها حاولنا بكل الطرق ولكننا فشلنا لا أعرف كيف صنعوها ولكنها لاتحترق يضربون منها ولا نستطيع

الوصـــــول لهم حـــــتى أن الملاعين يأكلون ويحتفلون فيها ويسخرون منا بهذا الشكل ستسقط عكا قريبا

تقدم جنـود من الرجـل وقـال احـدهم – صلاح الدين حفظه الله ينتظرك

عاد الدمشقي الى والده وأخبره برغبتـه في الذهاب الى عكـا فلعـل اللـه يجعـل النصر على يديه في مواجهة تلك الأبراج اللعينة ولكن الأب طلب منه أن يتحـدث الى بن شداد أولا مستشار ووزير صـلاح الدين وفي زاوية بمسجد الأمــوي جلس بن شداد مع صناع النحـاس والدمشـقي وكان يقول

صنعوا تلـك الأبـراج من أخشـاب خاصـة جلبوهـا من غابـات الجزائـر، وغلفوهـا بـالجلود المبللـة، وطينٍ مقـاوم للنـار، ومواد أخـرى تجعلهـا لا تحـترق، لاتوجـد قوات بحرية لضربهم من البحر وصـنعوا خنـدق حــول عكــا وجنــودهم يرتــدون

الحديــــد دائمـــا ويغطى كـــل جســـدهم نضربهم بالسهام فيصبحوا مثل الأشـجار المتحركة لن تسـتطيع المدينـة الصـمود بهذه الطريقة

هنا تدخل الدمشقي في الحوار

لدي تركيبة يمكن أن تحرق تلك الأبــراج ويتم تصنيعها من مواد وخامات متــوفرة ولكن يجب أن نكون في عكا بسرعة

سأصـحبك الى عكـا اليـوم ولكن أحضـر أدواتك وأرجو أن تكون محقا

معركة الأبراج

احضر الدمشقي أدواته وأوراق لاتتعــدي العشـــرين صـــفحة في حقيبـــة وبعض الطعام وانطلـق مـع بن شـداد الى عكـا وهناك وقف القائد قراقوش، حاكم عكا، على سور القلعة يراقب الأبراج، ووجهه يقطر ألماً. رُمي السهام، وصُـب الـزيت

المغلي، وقُــذف الحطب المشــتعل... ولكن الأبراج لا تتوقف، ولا تحترق

في تلـك الليلـة، اجتمـع مجلس العلمـاء والمجاهدين، وقال قراقوش:

– "لقد جرّبنا كل شـيء... النـار لا تأكـل تلـك الأبـراج! فهـل عنـدكم من علمٍ أو حيلة؟"

سـكت الجميـع، وهنـا نهض بن شـداد وقـدم الدمشـقي للجميـع شـاب نحيـل طويـل اللحيـة، عينـاه تتوهجـان ذكـاءً، وملابسـه تفـوح منهـا رائحـة الأعشـاب والنحاس والخـل بعـد أن قـام بعـدد من التجارب في المعمل بالحصن.

قال:

– "اسمي الدمشـقي. جئت من دمشـق بدعوة من الله، لا من بشر. وقد صنعت شيئًا قد يحرق مـا ظننتمـوه لا يُحـرق...

لكنهــا نــار لا تُطلــق إلا بصــدق النيــة وإخلاص العمل."

دهش القوم، وقال قراقـوش: – "أتعـدنا بالنصر؟"ـ

فقـال الدمشـقي: – "لا أعـدكم بشـيء. ولكني أُقسم أن العلم سلاح لا يُهزم، إذا حمله رجل مؤمن ذو أخلاق."

ولكن قراقـوش – لقـد جربنـا كـل شـئ ويجلس أمامك خـير علمـاء الأرض فهـل ستنجح أنت ولا أحد يعرفـك من العلمـاء ولـولا الحصـار لمـا قابلتـك ولا تحـدثت معك

وهنــا اعــترض أحــد العلمــاء على كلام قراقوش وقال لها – لعل الله تعال جعل الفرج على يد هذا ولا يضـرنا ان نوافقـه على قوله

استسـلم قراقـوش لقـول العلمـاء وفي صباح اليوم التـالي، خـرج فرسـان عكـا

من البوابـة، يحملـون زجاجـات فخاريـة صغيرة، مملوءة بسائل شفاف له رائحة نفـاذة، صـمّمه الدمشـقي من الزيـوت، والملح الصـخري، والقطـران، والخـل، وبعض الأسرار التي لا تُقال إلا للثقات.

كانت الأبـراج الثلاثـة واقفـة مثـل القلاع والصـليبين داخلهـا يضـحكون ويـأكلون ويحتفلون يشربون الخمر وهم يقومـون بتعبئة السلاح والذخيرة لضـرب المدينـة من جديد

ونظـــر أحـــدهم الى جنـــود عكـــا وهم يسـتعدون لضـرب الأبـراج وسـخر وهـو يقول

- ماذا يفعل هـؤلاء ستسـقط مـدينتهم اليوم أبراجنا أقوى من ني.....

ولكنـه لم يكمـل الجملـة فقـد ضـرب الجنـود الأبـراج بزجاجـات الدمشـقي فأحـــدثت شـــرارة كبـــيرة واشـــتعلت الأبـراج كأنهـا أعمـدة من نـار تلتهمـا

السـماء ودقـائق وكـانت الأبـراج ومن عليها حطام ورماد وسُـمعت تكبـيرات أهل عكا تملأ الأفـق، وعـاد الدمشـقي إلى مخبره الصـغير في القلعـة، يكتب في دفتره:

"إنما العلم نور، لا يُضـيء إلا في يـد من كان قلبه نقيًـا، ولسـانه صـادقًا، وسـعيه في سبيل الخير."

ومنذ ذلك اليوم، صار أهل عكـا يقولـون لأبنائهم:

"كن مثـل الدمشـقي... لا تغضـب، بـل تفكر. لا تصرخ، بـل اخـترع. لا تـؤذِ، بـل دافع عن الخير بالعلم والعمل."

ورغم الانتصار الكبير الا أن سقوط عكـا كان مؤكـدا مـع تفـرق قـوى المسـلمين وتخلى الكثير عن مساندة صـلاح الـدين والمدينة وضخامة الحشود الصليبية فقد حشدت أوربا أقوى ملوكها متحدين معـا

فســـقطت المدينـــة في 1191م بعـــد حصار بدء في أغسطس 1189م

كمين قراقوش

دخل فيليب ملـك فرنسـا على ريتشـارد ملك إنجلترا غاضبا وبدأ حديثه

- لمـاذا أطلقت سـلاح قراقـوش أنـه رجـل مهم لصـلاح الـدين لقـد رأيت كيف صمد أمام كل هـذه الأسـاطيل عامين كاملين
- فيليب عزيزي لقد دفع الرجـل فديـة ممتازة
- فديه .. كنوز الشام كلها بين أيدينا .. هـل أصـبحت شـرها.. أم متسـامحا مثل صلاح الدين
- متماسحا سـيتم اعـدام 3000 أسـير الليلة
- ليتك قتلت قراقوش أيضا

- لاتقلق كمين من أفضل 10 فرسـان عندي ينتظروه في الطريق لن يصل للقاهرة أبدا
- ريتشـــــارد قلب الأســـــد أنت قلب الثعلب لا الأسد

يضحكان

أنطلق بهـاء الـدين قراقـوش بحصـانه عائدا الى القاهرة وفي الطريق تفأجـا بكمين من الفرسان العشـرة فرسـان ريتشــارد أحــاطو بـــه بالخيــل ومعهم عربة نقـل خشـبية فـنزل بسـرعة من الحصـان وأخــرج سـيفه وهــو يسـتمع بهدوء الى سخرية الفرسان به وتقــدم كبيرهم منه وهو يقول ساخرا

- بهاء الـدين قراقـوش أنتظـرت هـذه اللحظة عامين وأنا في البحر الان أنا على البر وساقتلع رأسك

رد قراقوش بهدوء – ما تفعله خطأ

ضـحكوا جميعـا من جملـة قراقـوش ولكن قبـل أن ينطـق أي منهم بكلمـة أخـرج من جيبـه من شـئ القـاه على العربية الخشبية التي انفجرت مشتعلة ثم انطلـــق كالســـهم وقتلهم جميعـــا بضربة واحـدة سـريعة من سـيفه ولم يتمكن أحـد منهم من لمسـه أو حـتى ضـربه بالسـيف وبقى رئيسـهم وهـو يصرخ مذهولا متألما من اصابة برجلـه من سيف قراقوش

- أيهـــا الملعـــون كـــان يجب قتلـــك بالسهام لا مبارزتك

فرد قراقوش – أخبرتك أن ما تفعلـه خطـــا كنت أقصـــد أنـــه لايكفي 10 فرسان لقتلي لا الخيانة للعهد فهـذه أخلاقكم تخونـــوا العهـــود دائمـــا ولا أخلاق لكم

لم ينتظر قراقوش ردا بل أقتلع رأسه بضربه من سيفه وأنطلق في طريقه الى القاهرة للقاء صلاح الدين

وهناك قابل صلاح الدين وقص عليه ما حدث وكيف أن لعبة الدمشقي المتفجرة أنقذته من كمين ريتشارد وطلب منه أن يقدم مكافاة للدمشقي على أعماله خلال الحرب ولكن صلاح الدين أخبره بأنه فعل ذلك ولكن الدمشقي رفض أي شئ وارادها خالصة لله وعاد الى مدرسته ومعمله في دمشق ليخدم الإسلام والمسلمين بعلمه

جلست مع أطفالي مليكة 9 سنوات وحمزة 5 سنوات في المنزل وحكيت لهم قصة الدمشقي وكيف أنه استطاع بعلمه أن ينتصر على جيوش الظلم في حصار عكا وقررت تعليمهم تجربة تحضير غاز ثاني أكسيد الكربون

فاحضرت (كوب زجـاجي شـفاف - خـل أبيض - بيكربونـــات الصــوديوم (بيكينج بودر) - شمعة صـغيرة - ولاعـة أو عـود ثقاب ملعقة طبق صغير)

وضـعت الشـمعة في منتصـف الطبـق وأشــعلتها ثم جعلت مليكـــة تضـــع في الكوب الزجاجي ملعقتين صــغيرتين من البـودر ثم صــب حمـزة ربـع كــوب من الخـل ببطء وعلى الفـور حـدث فـوران وتصـاعد غـاز ثـاني أكسـيد الكربـون ثم قمت بإمالة الكوب فوق الشمعة كما لو كنت أصب الهواءً فانطفئت الشــمعة ثم شـــرحت لهم أن تفاعـــل الخـــل مـــع بيكربونات الصـوديوم، ينتج غـاز يسـمى ثـاني أكسـيد الكربـون، وهـو أثقـل من الهواء ولا يُرى. عند "صبّه" من الكــوب، يـــنزل ويغطي الشــمعة ويمنــع عنهـــا الأكسجين، فتخمد

ثم أكملت: "كما استخدم الدمشقي علمه لإطفاء شر الأعداء وحرق أبراجهم، يمكننا أن نتعلم كيف تشتعل النار وكيف تنطفئ، لا لنؤذي، بل لندافع عن الخير، ونستخدم العلم لنُبدع ونحمي ونبني."

قصة الدمشقي والابراج قصة حقيقية لعالم مسلم في الكيمياء فبعد أن هاجم الصليبيين عكا بابراج ضخمة صنعوها من نوع خاص من الخشب احضروه من الجزائر ومع إضافة الخل والطين والجلود ومواد أخرى أصبح تدمير البرج وحرقه مستحيلا بكل المواد المتاحة وبدأ الياس يستحوذ على أهل عكا رغم كل الجهود من داخل عكا وخارجها وجاء الفرج على يد الدمشقي وصنع المادة التى أحرقت ابراج الصليبيين وكانت الهزيمة الساحقة برا وبحرا... القصة مستمرة والابراج لا تزال ولكن في

شـكل حـاملات طـائرات وصـواريخ الخ ويضـربون غـزة ولبنـان وسـوريا واليمن وهم واثقين من عـــدم وجـــود من يـــرد ولكن ندعو الله أن يرسل الفرج والنصر على أعـداء الـدين كمـا أرسـله على يـد الدمشقي.